العبقرية والجنون

لملي أدم

فكرة العلاقة بين العبقرية والجنون ليست من الافكار الحديثة ، فقد لحظها القدماء وأشاروا اليها ، والمعروف عن افلاطون انه كان يتحدث عن جنون الشعراء المقدس ، ويؤثر عن ارسطو قوله « المبرزون في الفلسفة والسياسة والشعر والفنون كان يغلب عليهم المزوج الحاد الحزن والاكتئاب » ، ولمح ذلك درايدن الشاعر الانجليزي وعبّر في شعره عن « اقتراب الذكاء من الجنون وان بينهما فاصلاً دقيقاً رقيقاً » وأكد هذه الفكرة في الأذهان وأرسخها على مرور الأجيال كثرة الشقاء العبقرية والجنون

ومنذ سنة ١٨٠٠ اخذ البحث عن العلاقة بين العبقرية والجنون يتخذ طابعاً علمياً ، وقد وجه شوبنهاور شيئاً من الالتفات الى هذه الناحية ، وفي سنة ١٨٣٥ ظهرت أولى رجعة لسقراط من ناحية تطبيق المعلومات الحديثة عن العلاقة بين العبقرية والأمراض العقلية على حياة العظماء وكبار المفكرين وقد كتبها ليلي Lélut ، وفي سنة ١٨٥٩ ظهر كتاب مورو دي تور وقد تناول المسألة من الناحية العامة ، وقد اعتبر العبقرية حالة من احوال الأمراض العقلية سببها فرط احتياج المخ ، ولم يحاول مورو تحديد العبقرية او ان يلحق بها معنى من المعاني النفسية ، وهو يعتبر الرجال الذين قاموا بأعمال عظيمة في أية ناحية من النواحي عبقريين دون نظر الى اختلاف بنائهم النفسي والذين يشايعونه على آرائه لا مندوحة لهم عن الاعتقاد بأن كل الذين نهضوا بمثل الأعمال كانوا مجانين ، وقد ظن مورو ان رأيه لا يمكن ان يتسرب اليه الشك لأنه كشف عن الكثير من امارات الجنون في سير العبقريين ، وقد أحصى حالات كثيرة من هذا القبيل قبلها المؤلفون الذين جاءوا بعده وترسموا خطواته وبنوا عليها وأضافوا اليها ، وزادوا مركزهم قوة باضافة استكشافات جديدة ودراسة حالات طريفة

ومن أوفى المؤلفات في هذا الموضوع كتاب لمبروزو عن « الرجل العبقري » وقد أثار زوابع من الخلافات وداوت حوله مناقشات حادة وجدل عنيف ، وهو على شمول بحثه واتساع نواحيه وغزارة معرفته لا يحاول تعريف العبقرية وتحديد معالمها . وفي الفصل الذي عقده للتحدث عن

نسبورومب عبقرية يذكر لنا ان العبقريين في الغالب يساعدهم الرأس مبرودو القدم ة وهو يرى ان العبقرية تشبه الجنون من نواح كثيرة وقد أوضح في هذا الكتاب انهم ان بعض العبقريين — اذا أغضينا عن بعض شذوذهم — كانوا ابرياء من الجنون، وهو يذكر في قائمة هؤلاء سبنوزا وكولومب وداتي وميشيل انجلو ، ولكنه عاد بعد ذلك وغيّر رأيه واعتقد انا لم نلمح مظاهر الشذوذ وآيات الجنون في حياة بعض العبقريين لنقص معلوماتنا عنهم او لأنها لم تسترع نظرنا

وفي القرن العشرين ظهرت بحوث مختلفة في هذا الموضوع ويعتقد الكثيرون انها اكدت ما ارتآه مفكرو اليونان . ومن الباحثين الذين يقولون بذلك الباحثة الألماني ولم لاج ايكاوم ، فهو يعتبر الجنون عنصراً من العناصر الرئيسية في تكوين العبقرية ، ومن انصار هذا الرأي الباحثة الانجليزي (لسبث) وقد تتبع في كتابه عن « جنون العبقرية » آثار الشذوذ ومظاهر الجنون في حياة الكثيرين من البارزين في نواحي الحياة المختلفة

والعلوم العقلية قائمة على التجربة ، وكل ما نعلمه عنها مستمد من التجربة والمشاهدة وقد عرفنا من التجارب ان هناك ضروباً من الاضطرابات النفسية تنتهي بفقدان الوعي وانهيار الاعصاب ، وفي احوال معينة أخذت القوى العقلية في الضعف والاعتلال حتى تجز المريض في في نهاية الأمر عن العمل عجزاً تاماً ، وبهذه الطريقة العملية المحضة استقر رأي الباحثين في الامراض العقلية على وجود ألوان مختلفة من الامراض العقلية لكل منها مظهره الخاص وسيره المعروف. وبموازنة حالات المجانين الذين لا موضع للشك في جنونهم بحالات عقلاء الناس ودراسة الميزات والفوارق النفسية بين الاثنين وصل علماء النفس الى معرفة الكثير من علامات الجنون ودلائل الثبات الاعصاب

ويحسن ان نلاحظ هنا ان العلامات المصاحبة لبعض الامراض العقلية لم تكن هي في بادىء الامر الدليل على وجود تلك الأمراض ، بل الأمر على نقيض ذلك فقد أدرك العلماء أهمية تلك العلامات بعد دراسة عناصر المرض ، مثلاً في الاوقات السالفة لتقدم الامراض العقلية كان خداع الحواس يفسر تفسيراً صوفيًّا ومن قبيل ذلك الرؤى المقدسة ورؤية العذارى ، ولكن دراسة الامراض العقلية هدت علماء الامراض النفسية الى أن خداع الحواس في غالب الاوقات من العلامات المصاحبة للامراض العقلية

وبدراسة سير الامراض العقلية وما يطرأ عليها من تطورات وما يقترن بها من علامات استطاع علماء النفس ان يشخصوا الامراض العقلية في مراحلها الاولى حيث تغيب آثارها عن عيون الكثيرين ، وهذا كان من نتائج المشاهدة وثمرات التجربة

ولكن كل تجربة جديدة تحمل في ثناياها مشكلات جديدة ، وذلك لان المنهج العلمي

الصحيح يقتضي أن نستخلص النتائج من التجارب والمشاهدات ، وقد تزيف التجارب الجديدة النظريات السابقة لانها تناقضها مناقضة واضحة أو لانها لا تطابقها

من أمثلة ذلك انهُ قد لوحظ ان امراضاً عقلية كثيرة مثل البارانويا وأنواع الهلاخوليا والشلل العقلي كانت مصحوبة في الغالب بخداع الحواس، ثم كشفت التجارب بعد ذلك ان كثيراً من المفكرين كانوا مستهدفين لخداع الحواس فهل نستخلص من ذلك أن هؤلاء المفكرين كانوا مجانين ؟ هذا هو الاستنتاج الذي انتهى اليهِ مورو ولبروزو ، ولكن هل هو استنتاج منطقي جارٍ على سنن التجربة والاصول العلمية ؟

وواضح من ذلك ان مورو ولبروزو ومن لفَّ لفهما يأخذون مسألة ان خداع الحواس لا يحدث الاَّ في حالات الجنون قضية مسلمة وحقيقة غير قابلة للنقض او التعديل ، في حين أننا قد نلتقي برجل قد اختلَّ ميزان عقله وشرد فكره وفقد وعيه فلا نرى مندوحة عن وصفه بالجنون ثم نلتقي برجل آخر قد أتى بأعمال باهرة أثارت الاعجاب والدهشة وهو يتصرف تصرف من يعي ما حوله ألا يقتضي ذلك ان نعدَّ مثل هذا الرجل عاقلاً بلا ريب ؟

قال شارلز لامب « من الممتنع على العقل ان تتصور شكسبير مجنوناً » وفي رأيه هذا كثير من الحق والاصالة ، على ان حياتي معروف أكثر من شكسبير ، وقد كان مثالاً للرجل الكامل الشخصية المتعدد النواحي ، وقد حاز اعجاب من عاشروه جميعهم ، عدَّه قوم العجوبة من أعاجيب البشرية ، وقد ترك أثراً عميقاً في نفوس الذين كان لهم حظوة لقائه والتعرف اليه ، وقد كان مثالاً للرجل المكتمل العقل السليم الفهم ، وقد كان حياتي نفسه هدفاً لخداع الحواس وذلك باعترافه نفسه فهل نستخلص من ذلك انه كان كذلك مجنوناً ؟ أليس الأقرب الى المعقول في أمثال هذه الحالة ان نعترف بأن حسباننا خداع الحواس من علامات الجنون خطأ ؟ وان علينا ان نفرق بين خداع الحواس الذي يعرض للعقلاء وخداع الحواس الذي يلازم المجانين

وأهم علامة مميزة للعقل وسلامته وثبات بنيانه هي نمو العوامل النفسية نمواً متوازناً ، ولكن عند تقدير ذلك النمو والنظر في تفاوت نسبه يلزم ان ننظر الى مسألة الصحة والمرض نظرة واسعة شاملة ، فقد يمتاز بعض الناس بسرعة الخاطر والمقدرة التخيلية والكفاية العملية ، وقد يغلب على البعض حدة الشعور ويقظة الاحساس ، وليس عندنا هنا ما يبرر القول بأن أمثال هذه العقول قد تجاوزت منطقة الصحة ، وهذه الفروق الكامنة في علاقة العوامل النفسية بعضها ببعض هي التي يتكوَّن منها تنوع المواهب واختلافات الاخلاق

وكلما ارتقى الفرد في مراتب التقدم كثرت الخلافات ودقت التنوعات وتباينت العوامل النفسية ومن ثمَّ تتسع الزاوية التي تنظر فيها الى المسألة من ناحية الصحة والمرض ، ونحن

حريرون بأن مقياس العبقريين عقلياً أرفع وأشمل من المقياس الذي نقيس به العاديين من الناس

ولنختبر الآن بعض العلامات المختلفة التي ظهرت في عظماء الرجال ونحاول أن نوضح الفرق بينها وبين العلامات المميزة للمجنون . وقد جمع مورد وماروردو قائمة كبيرة بأسماء العظماء الذين قيل عنهم أنهم أصيبوا بخداع الحواس ، وقد جوت هذه القائمة فيمن اشتملت عليهم اسماء نابليون ولوثر وبوذا ودوت وبيرون وكرومويل وسقراط وبروتس

ولا بأس لي أن نلاحظ هنا ان الأساس نفسه الذي أقاما عليه الدعوى هو الى حد ما موضع الشك ، وكلنا نعرف ان يسيراً الكثير من العظماء حافلة بالاكاذيب والمبالغات والنوادر والأساطير والخرافات ، وكثيراً ما تمتزج هذه الاختراعات الموضوعة بالحقائق امتزاجاً يصعب معه التمييز بين الحق والباطل ، ثم يأتي كاتب من الكتّاب وينقل عن الكاتب الذي سبقه ويدخل النقصة بنقصها وفضيضها ويعتبرها حقيقة تاريخية

وعظماء الأمراض النفسية أنفسهم يجدون صعوبة في التأكد من حدوث خداع الحواس حتى عندما يكون المريض ماثلاً أمامهم وتحت فحصهم ومراقبتهم ، وليست شهادة المريض نفسه ولا شهادة الأصدقاء عليه بكافية . ويعتمد أكثر الأطباء في ذلك على ملاحظاتهم الشخصية ، ولذا يتسع المجال للشك عندما تكون المسألة قائمة على التسليم بما نقله أحد الكتّاب عن كاتب من الكتّاب الأوائل وقد روى بلوطارخ مثلاً أنهُ في الليلة السابقة لمعركة فيلبي ظهر شبح يوليوس قيصر لبروتس ، فهل تقبل هذه الرواية بلا مراجعة ولا تعقيب ؟ أليس هناك ما يدعو الى ان نختبر الشاهد ونستفسره عن المصدر الذي استقى منهُ هذه المعلومات ؟ ولكن هذا غير ميسور عمله الآن وهذا هو النص « كان قد مضى هزيع من الليل وكان ضوء واهن ينبعث في خيمة بروتس وقد ساد الصمت وأطل المعسكر برمته وكان بروتس مستغرقاً في التفكير تخيل اليه فجأة انهُ يسمع وقع أقدام شخص يسترق الخطى فنظر صوب الباب فرأى منظراً مرعباً غريباً ، رأى شبحاً هادي الملكاية رهيباً قد وقف الى جانبه ، فاجترأ بروتس على ان يسأله قائلاً « من أنت ؟ » أإنسان أنت أم إنسان ؟ وماذا تريد ؟ ولماذا تأتي اليَّ ؟ فأجابه الشبح «روحك الامارة بالسوء يستدعي في فيلبي» فقال له بروتس بلا اكتراث « لكن ذلك »

ولم يذكر بلوطارخ علاماً اعتمد في هذه الرواية فكيف نقطع بصحتها اليوم ؟ أليس من المحتمل ان يكون بلوطارخ قد نقل عن غيره أسطورة ملفقة لا سند لها من الحقيقة ؟ ولكن لنفرض ان الرواية صحيحة لا عار عليها فهل هي كافية في الدلالة على خداع الحواس ؟ لقد وقعت الحادثة في الليل فمن المحتمل الى حدٍّ كبير ان تكون حلماً صوّره خيال بروتس وهو في حالة اضطراب نفسي وثورة داخلية لخاله حقيقة واقعة

ويروى عن كرومويل انهُ كان في شبابه مستلقياً ذات يوم في فراشه وقد دار في مخيلة الاحباء فظهرت له امرأة ضخمة عوراء وقالت له « انك ستصبح أعظم رجل في انكلترا » . فكّر من يتذكر ان كرومويل وهو مستلق في فراشه لم يكن قد أخذته سنة من النوم . ترى أكانت تلك المرأة من الأحلام ؟

وتروى عن كثير روايات من هذا القبيل ويمكن اخضاعها للفحص عند التفسير والنظريات العلمية التي تقوم على ملاحظات مشكوك في صحتها لا يسع قبولها في يسر وسهولة . ولا مفر من غربلة الاخبار التي تروى عن العظماء والتثبت من صحتها حتى لا نخطىء في استخلاص النتائج من المقدمات

على ان هذه الروايات على ما فيها من مبالغات وأوهام تنطوي على شيء من الحق ، فمن الحقائق غير المنكورة ان خداع الحواس كان يعرض لرجل لا خلاف في عبقريته وعظمة شخصيته مثل جوتي ، وقد لاحظ علماء الامراض العقلية ان خداع الحواس الذي يصيب المجانين له نظير عاثل في قدرة بعض الاشخاص على استحضار تأثرات الحواس ، وهذه القوة تنمو بدرجات متفاوتة في أمثال هؤلاء الاشخاص ، والصورة المستحضرة في الغالب أضعف من الاصل سواء في تخطيطها او في ألوانها ولكن في حالات نوادر لوحظ ان قوة الاستحضار قد تمت وبلغت حداً من التفوق لا مزيد عليه الى حد أنها صارت تعادل في الوضوح والقوة صورة الاحساس الأصيل . وقد روى لمبروزو عن أحد المصورين انه كان يكفيه ان يتأمل شخصاً ما مدة نصف ساعة ويستطيع بعد ذلك ان يستحضر أمامه صورة وعية له ويشرع في رسمها بوضوح وثقة كأن صاحب الصورة لا يزال ماثلاً أمام ناظريه . ومن الخلط وإساءة الفهم ان نعتبر هذه المقدرة ضرباً من خداع الحواس الذي يصيب المجانين لان المصور يستدعي الصورة وفق ارادته ويسخرها لاغراضه الفنية ثم ينفيها بعد ذلك في حين ان الصورة التي تخيف الشخص المضطرب الاعصاب تأتي على غير رغبة . وكما ان الذاكرة تستطيع ان تستدعي تأثيرات الحواس فكذلك يستطيع التوهم — الذي تحدثت عنهُ في المقال السابق عن طبيعة العبقرية — ان يكوّن صوراً جديدة عليها طابع الخلق وميسم الجدة . وفي الاشخاص ذوي الخيال القوي الخصب تصبح صور التوهم الخالق معادلة للصور التي تستدعيها الذاكرة في الوضوح والاجادة بحيث تدنو من الصور الحسية الواقعية . ولمبروزو نفسه يقول عن المصور مونتينا Montina « كان يتصور انهُ يرى صورة ماثلة امامه قبل أن يشرع في تصويرها ، فاذا وقف بعض الناس بينهُ وبين المكان الذي كان يتمثل فيه الصورة امره أن يتنحى ناحية أخرى ليتمكن من رؤية ما يصوّره » . وقدرة الكثيرين من عظماء الفنانين وبراعتهم في دقة الوصف

مرجعها هذه الصفة اللازمة لهم . والاشخاص ذوو التوهم السّري الخسب لا يستحى عليهم خلق عدد الصور التي تجر ذوي التوهم الجذاب والمجد العظيم والذين يعيشون في عوالم الافكار المجردة

وقد عرضت لبعض عظماء الرجال حالات من خداع الحواس غير قائمة على الرغبة ، واكثر من أُلمت بهم هذه الحالات من المستغرقين في العبادات والافكار الدينية مثل الأولياء والقديسين والمصلحين الدينيين . ولوثر يزعم انهُ رأى مرة الشيطان وقذفه بالدواة . ويختلف الآراء في اعتبار أمثال هذه الحالة من حالات المرض ، فريق من علماء الامراض العقلية لا يراها مرضاً وفريق آخر يراها من علامات اختلال العقل ، والذين يعتبرونها مرضاً يعللون ذلك بخروج هذه الحالة عن المألوف ، ولكن لو كان الخروج عن المألوف في حد ذاته مرضاً لكانت العبقرية مرضاً لانها في صميمها ضرب من ضروب الشذوذ والخروج عن المألوف

ومن الحقائق المعروفة ان الايحاء قد يكون من البواعث التي تساعد على حدوث خداع الحواس ، فالحيان الرعديد قد يرى في المكان المهجور اذا ما أظلم الليل صوراً وأشباحاً ويخال عزف الريح وحفيف الاشجار ولولةً وعويلاً ، والطفل القوي التوهم الذي فجع في والدته قد يصور له الألم اللاذع صورتها في السماء أو يسمعه صوتها ، وأمثال هذه الظواهر كثيرة وهي متوقفة على قوة التوهم ورقة العواطف . وقد كان لوثر يعتقد بوجود الشيطان ولذا كان خداع الحواس عنده ثمرة من ثمرات هذا الاعتقاد الراسخ . ورؤى القديسين والاولياء لا تجيز لنا ان نرميهم بالجنون فان الرجل الذي وقف حياته على الدين واعتقد بصحة مذهبه اعتقاداً لا يسمو اليه الشك وآمن بوجود الملائكة والشياطين ليس من المستنكر ان يرى في جيشان شعوره وفورة عواطفه رؤى دينية وصوراً قدسية ، وناهيك فيما الوقفات العنيفة والحوادث الجسيمة كان يرى عيسى صاعداً في السماء . ومسألة ان خداع الحواس دليل اضطراب العقل مستمدة من التجارب ، ولو ان التجارب اظهرت لنا ان خداع الحواس لا يحدث الاّ في حالات اضطراب العقل لكان من حقنا ان نجزم باعتبارها علامة مؤكدة من علامات الجنون ، ولكن الواقع ليس كذلك فان المشاهد ان كثيراً من ذوي العقول الراجحة والبصائر النيرة وكبار الشعراء والفنانين استهدفوا لخداع الحواس

وخداع الحواس الذي يصح اعتباره من علامات الجنون هو الخداع الذي يؤثر على الارادة والوعي ويقلل مسؤولية الانسان عن أعماله

وهناك مشابهة بين قوة التوهم عند الشعراء والفنانين وعلامات الجنون التي تميز فريقاً من المجانين ، فقد لاحظ الباحثون بين العلامات الدالة على الهستريا الميل الى الكذب وخداع

الغير ، وهذا الكذب لا تبعث عليه المصلحة الشخصية كالرغبة في الافلات من العقوبة وانما هو من خلق الوهم ، وأكثر هؤلاء الأشخاص المصابين بهذا الداء ضعاف العقول ، ولكن قوة الوهم فيهم ناشطة دائبة وهم يخالون ما يصوّره لهم الوهم حقيقة واقعة ، وبعضهم يميل الى غرائب المقارنات وعجائب المفارقات ويتوهم صلات خفية بين الافكار المتباعدة والمشكلات المتناقضة ، ويُكسب ذلك في بعض الأوقات تفكيرهم لمحة زائفة وقد يحسب الناظر السطحي ورمهم شعاعاً ويظن هوسهم عبقرية ، وهم لا يكتفون بانكار ما يتهمون به وانما يبتكرون قصة مخالفة للحق ، وبعضهم لا يكتفي بتشويه الحقيقة وانما يضعون لكلامها حواشي واضافات لا تمتُّ اليها بسبب ، وهم يفعلون ذلك ليثيروا الاعجاب بهم والعناية بأمرهم . وهذا الضرب من الوهم موجود عند الشعراء والفنانين ، ولكنهُ عندهم ثمرة من ثمرات قوة الفكر في حين انه عند مرضى العقول من دواعي الاختلال ، وقد كان حيني في طفولته يقصُّ على أترابه أقاصيص من نسج خياله الخصب ويرويها لهم باعتبارها حوادث حقيقية وكان يعجب من تصديقهم لها

وفي المجانين والعبقريين دافع لا غلاب له يغلب المصلحة الشخصية ولكنه عند المجانين يتجه الى توافه الأشياء وبعضهم يجرُّ على أهله الشقاء والخراب لتعلقه بفكرة مستحيلة خاطئة واعتقاده بصحتها ولا يثنيه شيء عن متابعتها بعناية واهتمام في حين ان دافع الخلق عند العبقريين هو لبُّ لباب أكمل وأرقى ما في النفس الانسانية فهو الذي يبعث العالم النحرير على مصارعة المشكلات الفكرية ويحدو الفنان على خلق الآيات الفنية الرائعة ويغري الفاتح العظيم بطلب السيطرة والاستعلاء لا طمعاً في المال او الجاه وانما لأن حب التغلب والانتصار جزء من طبيعته وعنصر من عناصر وجوده . ويمتاز كبار الفنانين بتنوُّع الحالات النفسية وتواليها وكذلك المجانين فهم هدف للتنقل بين الجنة والجحيم والنزوات الطارئة والبدوات المتناقضة من علامات الامراض العصبية وبخاصة الهستريا ، ولكن المشابهة هنا سطحية خارجية ، لان وفرة الحالات النفسية عند العبقريين دليل الحياة وفرط اليقظة

ومن شبهة عظماء الرجال انهم كلما انتهوا الى غرض من الأغراض وبلغوا غاية من الغايات طمحوا بأبصارهم الى قمة أعلى وغاية أبعد فهم في قلق مستمر وتطلع دائم لا يطمئنون الى حالتهم ولا يرضون عن انفسهم ، والشعور بالسعادة والغبطة من المشاعر المقضون بها على العظماء ومن ثمَّ قول ارسطو ان الذين برزوا في الفلسفة والسياسة والشعر كانوا دائماً ميالين الى الاكتئاب . ولكن هذا الحزن يختلف عن الجنون وهو نتيجة محتومة لتركيبهم النفسي ، وأنفس ما في الانسانية هو هذا الشعور بالنقص وعدم الاقتناع بالنفس وفقدان العزاء والسلوان في العمل والخلق الذي يمتاز به العبقريون ، والذي يجعل الحضارة الانسانية مدينة لهم ومحسوبة عليهم

والمفكر الذي ينغمر في تفكيره ويحصره عما حوله قد يظهر في مظهر المجنون الذي لا يعي ما يحيط به ، ولكن وراء ذلك التشابه في المظهر اختلاف كثير من أوجه . فالمجنون يعجز عن إدراك ما حوله لضعف عقله أو اختلال تفكيره ، وفقدانه القدرة على الانتباه والتفكير ، ومن ثم لا يعي ما يحيط به . أما ذهول العبقري والفنان فسببه فرط قوة الانتباه وتركيز العقل بحيث لا يستطيع ان يتابع تفكيره ويحصر جهده في ناحية بعينها حتى لا يعي سواها

ومن خصائص العبقريين علاقتهم بالبيئة التي يعيشون فيها ، والرجل الذي يشهر بمواهبه الفائقة ويمتاز من صغره بالنمو الفكري والعبقرية سرعان ما يجذب حوله طائفة من المعجبين به القادرين لمكانته وكثيراً ما يشعر بين هؤلاء المتملقون والأذناب ، فاذا كان من ذوي العبقريات المبكرة فانه يكون قد تعود الثقة والاطراء وألف الاعجاب والاكبار فاذا وُجِّه اليه بعد ذلك نقد فمن الطبيعي ان يتأثر به أكثر من غيره ممن ألفوا النقد وتعودوا المزاحمة ، وربما غالى في ذلك وحسب الناقد عدوّه الشخصي ، وقد يمتد غضبه من الناقد الى معاصريه جميعهم ، ثم يجيء العالم النفسي السطحي ويضرب هذه الحالة مثلاً لجنون الشعور بالاضطهاد غير ناظر الى الملابسات التي جعلت العبقري يبدو في هذا المظهر الشاذ

والرجل العادي قد تعوّد ان يكيّف ميوله ويسيطر على اهوائه التي تعارض المجتمع ويخرج على تقاليده وسننه وألف الملاءمة بين سلوكه وأحوال البيئة حتى لا يبدو شاذاً متنافراً ، ولكن الرجل العبقري المشغول عن مراقبة دخائل نفسه وصور توهمه قد لا يلتفت الى صغائر الحياة اليومية ولا يعبأ بتفصيلاتها ولذا يبدو على حقيقته . ومن السهل ان تستشف ميوله وتقف على طبيعة أهوائه لأنه لا يحسن فن المداراة والتكتم واخفاء أهوائه وميوله على خلاف الرجل العادي

وقد قيل في تأكيد الصلة بين الجنون والعبقرية ان كثيراً من العبقريين أصيبوا بالجنون مثل لوكريتس وتاسو وبلياو وسوفت وهلدرلين وموباسان وان بعضهم مات منتحراً مثل لنتج وكلايست وزوفال ، ولكن مسألة إلحاق الجنون بالعبقرية لان بعض العبقريين أصيبوا بالجنون أو ماتوا منتحرين من المسائل التي لا يبت فيها الا عن طريق التجربة والمشاهدة وسبيل التجربة هنا هو عمل احصائيات دقيقة تبين عدد العبقريين الذين أصيبوا بالجنون وتثبت ان نسبة عدد المجانين في العبقريين أكثر من نسبة عدد المجانين في غيرهم من الناس ، ويقتضي ذلك ان تكون هذه الاحصائيات شاملة العصور القديمة والحديثة ومختلف الامم وان تراعى فيها الدقة التامة والاحاطة الكاملة ويتيسر بعد ذلك أن نبني حكماً صحيحاً خالياً من الغرض وموسوماً بالميسم العلمي

ومحل القول ان هناك تشابهاً بين الجنون والعبقرية ولكن هذه المشابهات ليست سوى القرابة ، وهي كالمشابهة بين الذهب الابريز والنحاس الأصفر لا تعدو المظهر . والعبقري يفوق عصره ويسبق جيله وكثيراً ما يساء فهمه فيقرن بالجنون